

المقريزي خلدوني يكتب عن الخطط والملوك

د . يسري عبد الغني عبد الله

باحث وخبير في التراث الثقافي

ملخص المقالة

ما زلنا في حاجة ماسة لتفعيل البحث المقارن في عصور التاريخ ، لأنه ميدان يساعدنا على استجلاء الأسس العامة في الحضارة الإنسانية ، والقرن الخامس عشر الميلادي الموافق التاسع الهجري تقريباً ، من أهم العصور بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحوال الدول والجماعات بالشرق والغرب .

إن قصة المؤرخين في مصر خلال القرن المشار إليه لا يمكن أن تتم إلا بذكر العلامة / ابن خلدون والإشارة إلى فضله الكبير ، وإلى تلاميذه الذين نهلوا من منهجه وعلمه ، وقد أخذنا أول تلاميذه ، ونعني به المؤرخ المصري / أحمد بن علي المقريزي ، حاولنا أن نعرف به ، ونلقي الضوء الكاشف على رحلة حياته ، وأهم مؤلفاته التاريخية ، وأسلوبه في التأليف ، وأخلاقياته ، ورأي معاصريه فيه ، ذلك بالإضافة إلى الوقوف على تأثره بفكر ابن خلدون فيما كتبه من آراء وأفكار وتحليلات ورؤى تاريخية ، فلعلنا نكون قد وفقنا إلى ذلك .

Article Summary

We are still in dire need to activate comparative research in periods of history, because the field will help us to elucidate general principles in human civilization, and the Horn of the fifth century AD, corresponding to almost the ninth AH, of the most important times because of what appeared to be its guiding elements and events marking the change conditions of countries and groups in the Middle and West. The story of historians in Egypt during the mentioned century can only be done by mentioning the brand / Ibn

Khaldun and the reference to the great virtues, and to his disciples who are energized by his approach and his knowledge, have taken the first disciples, and we mean of Egyptian / Ahmed Bin Ali Maqrizi, we tried to know it, and take a light detector on the journey of his life, and the most important historical writings, and his style of writing, and ethics, and the opinion of his contemporaries in which, in addition to stand on influenced by the ideas of Ibn Khaldun in his books of opinions and ideas and analyzes and visions of a historic, Let us we have been successful at it.

نص المقالة

ربما دل البحث المقارن في عصور التاريخ ، وهو ميدان يجب علينا الاهتمام به لاستجلاء الأسس العامة في الحضارة الإنسانية ، على أن القرن الخامس عشر الميلادي ، أي القرن التاسع الهجري تقريباً ، أهم العصور التاريخية عند الإطلاق ، وذلك بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحوال الدول ، والجماعات والأفراد ، بالغرب والشرق على حد سواء .

ودليلنا على ذلك أي على صحة هذا الفرض التاريخي أن الأوربيين مضوا جاهدين أن يصلوا مباشرة إلى بلاد الهند وتجارتها طوال هذا القرن ، حتى إذا وصل البرتغاليون منهم إلى الشواطئ الهندية صار مصير الشرق كله في كفة المقادير العاجلة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد البعيد ، بل عثر الأوربيون . حوالي ذلك الوقت . على أرض أخرى حسبوها الناحية الغربية من بلاد الهند ، وسموا أهلها الهنود الحمر ، ثم استقروا على تسمية تلك الأرض وسكانها بأمريكا والأمريكيين¹ . وولوا وجوههم شطرها ، وشطر الهند الحقيقية في عنف لا هوادة فيه ونهم شديد ، مما يرجع كله في الأصل إلى القرن الخامس عشر الميلادي وحوادثه .

وللمؤرخين في مصر في ذلك القرن ظاهرة توجب على الباحث أن يلتفت إليها ، وهي في الواقع برهان على بدء العالم الإسلامي في شيء من

اليقظة أو الإفاقة لفهم كيانه ، ولعل أكبر دليل على ذلك تاريخ عبد الرحمن بن خلدون ، والمسمى كتاب : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ولا سيما الجزء الأول منه ، وهو الجزء المعروف باسم المقدمة ، إذ يرى القارئ بصفتها الافتتاحية تعريفاً أخذاً للتاريخ بأنه : " في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى ... ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديهما دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"²

والواقع أن ابن خلدون يشير إلى العلل والكيفيات والأسباب والنتائج ، بتلك الصفحات الافتتاحية إشارات كثيرة ، مما يدل على فقهه التام للتاريخ بالمعنى الحديث الذي ندرسه في زماننا هذا ، كما أنه يشير إلى ما يجب أن يتدرج به المشتغل بالتاريخ من المؤهلات ، وذلك حين يقول : إن المؤرخ الصالح محتاج إلى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على تحري النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها الشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فرما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ...³

لقد كتب ابن خلدون تاريخه بعد تنقل في البلاد العربية والإسلامية بالأندلس والمغرب ، وعاش في بلاط سلاطينها المسلمين ، وتقلد في خدمة دواوينهم ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، كما عمل سفيراً لأحد أولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة الأندلسية ، عند الملك (بيترو) صاحب قشتالة المسيحية ، وبذا شهد بنفسه أحوال العديد من الدول عن قرب ، ولمس بيده عوامل التدهور والانحطاط الناشئة أظفارها بين المسلمين والمسلمين ، مما جعل لكتابه على وجه التعميم ، والمقدمة على وجه التخصيص قيمة تاريخية فريدة .

ابن خلدون وفد إلى مصر سنة 1382 م ، وكان قد انتهى من كتابة أو تأليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين ، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة ، وحج أكثر من مرة إلى بيت الله الحرام ، وألقى محاضرات في رحاب

الجامع الأزهر الشريف ، والمدرسة القمحية وموضعها قرب جامع عمرو بن العاص جنوب القاهرة الآن ، بل تولى منصب قاضي قضاة المالكية بمصر ، كما رافق الحملة المملوكية التي قادها السلطان فرج إلى بلاد الشام سنة 1401 م ، لدفع تيمورلنك عن دمشق السورية ، وشارك في وفد المفاوضات للصلح بين الدولتين المملوكية والمغولية .

إن منبع الأهمية في هذه التفاصيل التي ذكرتها لك والخاصة بحياة ابن خلدون ، فهو أنها تنبئ بأصناف التجارب التي تدرس بها الرجل وأودع منها في كتابه ، كما أنها تدل على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين في مصر وبلاد الشام وغيرهما من البلاد ، بل تدل المراجع التي بين أيدينا على أن اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها بالذات أدت إلى تكوين مدرسة حوله من المعجبين والمتلمذين على طريقته ، كما أدت إلى قيام فئة من الكارهين له والغامطين لمقامه ، والمنددين بمقدرته .

ونؤكد هنا على أن إذ لم يتسع البحث في هذه السطور لأكثر من هذه الإشارة العابرة ، فإن في أخبار تلاميذه والتابعين له بإحسان وغير إحسان ، أكبر دليل على أن قصة المؤرخين في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي لا تتم إلا بذكر ابن خلدون والإشارة إلى فضله ، ولو لم يتسع الأمر لشيء سوى كلمات معدودة .

ونحب أن نضيف هنا إلى أن العلامة / ابن خلدون جبل أشم في أفكاره وآرائه وتحليلاته وتخريجاته المستشرفة للمستقبل ، وعليه فلن تنال منه تلك الترهات الزاعمة إفكًا وبهتانًا بأنه أخذ أفكاره من فلان أو علان ، لأن الأدلة التاريخية ثابتة وواضحة ومؤكدة على أصالة الفكر الخلدوني الذي علم البشرية وبالذات كل من له علاقة بالعلوم الإنسانية ، ومعنى آخر سيظل هذا الفكر منارة مضيئة مهما مرت الأيام والسنون .

أما أول أولئك التلاميذ فهو أحمد بن علي المقرئ⁴ (أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني) ، الذي ولد بالقاهرة سنة 1364 م ، بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالي ، والمقصود بالحارة هنا : الفندق أو الخان أو

الوكالة على قول المصطلح المصري في العصور الوسيطة ، أو العمارة الكبيرة على حد التعبير الحديث ، وحسب علم الباحث فلا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم سائدًا ببلاد الشام .

جاءت أسرة المقرزي إلى القاهرة من مدينة بعلبك اللبنانية إلى القاهرة في حياة أبيه علي المقرزي ، وأصل نسبتها يرجع إلى حارة المقارزة بتلك المدينة اللبنانية القديمة ، ولا يسع الباحث هنا (ووفقًا لاطلاعه) أن يشير إلى الشبه الملحوظ بين هذه التسمية ولفظ مقرزي ، وهي جهة بإيطاليا قرب عاصمتها روما .

ولم يستطع الباحث أن يجد تعريفًا لهذه الجهة بمختلف المراجع الجغرافية والموسوعات والمصادر التي عاد إليها ، ما عدا أطلس (التايغر) حيث ورد بفهرسه ما نصه : أن مقرزي بجوار أو بجانب روما ، وربما كان من لطيف الاتفاق أن لفظ (مقريسي) في الفرنسية هو شديد الشبه بلفظ المقرزي ، وهو اسم لمجموعة من النبات .

و عليه فإنه من المحتمل أن تلك الحارة البعلبكية اللبنانية كانت سكنًا لجالية من الجاليات الإيطالية التي وفدت للتجارة ببلاد الشرق العربي زمن الحروب الصليبية ، وأن أسرة مؤرخنا المقرزي اكتسبت هذه التسمية لحلوها أو سكنها بتلك الحارة بعد خلوها من سكانها الأصليين ، وقد اجتهد الباحث قدر طاقته كي يعرف ما إذا كانت هذه الحارة مازالت موجودة حتى الآن في بعلبك اللبنانية أو مكانها بالتحديد ، ولكنه لم يستطع أن يتلقى إجابة شافية بشأن موضعها في بعلبك الآن .

أعود لأقول : مهما يكن الأمر فالمعروف المقطوع به أن أحمد بن علي المقرزي نشأ نشأة قاهرية ، بناحية من أعظم نواحي القاهرة امتلاءً بالعمران والصخب وضوضاء الحياة اليومية⁵ ، وأن جده لأمه ، واسمه ابن الصايغ الحنفي ، هو الذي كفل تعليمه ، لضيق حال أبيه فيما يبدو قبل أن يصبح من أصحاب الأملاك والعقارات⁶ ، ولذا أخذ جده بتنشئته على أصول المذهب الحنفي ، وانكب هو على الدرس والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره ، وأظهر نجابة

ومقدرة ، ثم توفي ابن الصايغ سنة 1384 م ، فترك المقرئ مذهب الأحناف ، وانتقل إلى الشافعية ، ودرس الفقه دراسة واسعة ، ثم أخذ في مهاجمة الحنفية في عنف غير مفهوم ، مما استوجب لوم معاصريه له .

التحق مؤرخنا بالخدمة الحكومية ، فكان أول عهده بها موظفًا في ديوان الإنشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل موقعًا (أي كاتبًا) ، حتى سنة 1368 م ، وقد ذكر المقرئ أنه ظل في وظيفة الموقع بديوان الإنشاء حتى تلك السنة ⁷ ، ثم أصبح بعد ذلك نائبًا من نواب الحكم (أي قاضيًا) عند قاضي القضاة الشافعية ، فإمامًا لجامع الحاكم بأمر الله ، ومدرسًا للحديث بالمدرسة المؤيدية .

وفي سنة 1398 م ، اختاره السلطان برقوق ، وكان حفيًا به مشجعًا إياه ، لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين دون أن يذكر لنا أسباب ذلك ، وفي تلك الأثناء تزوج المقرئ وأنجب ، والمعروف أن بنتًا له ماتت بمرض الطاعون الذي اجتاحت القاهرة المملوكية وسائر البلاد المصرية سنة 1403 م .

وفي سنة 1408 م يصدر القرار بنقل المقرئ إلى دمشق السورية ، ليتولى الإشراف على أوقاف القلانيسية والمارستان النوري ، وليقوم بتدريس علم الحديث في المدرستين الأشرافية والإقبالية بدمشق ، ثم ما لبث أن عينه السلطان فرج بن برقوق في منصب نائب الحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المشرفون على أوقافها قضاة بها .

ولكن المقرئ رفض قبول هذا الشرف ، على الرغم من أن صاحب القرار هو السلطان ، ويظهر أن مؤرخنا قد سئم الوظائف الحكومية وهومها ومتاعبها ، يضاف إلى ذلك أنه أصبح في مجبوحة من العيش تمكنه من اعتزال الوظائف ، ولا ننسى أنه ملك ما أغناه عن إضاعة الوقت في كسب العيش ، عن طريق الحكومة والحكام .

ترك المقرئ دمشق السورية وأعماله الحكومية بعد إقامته فيها عشر سنوات تقريبًا ، وعاد إلى القاهرة خاليًا من عمل أو وظيفة ، ليتفرغ للدرس والعلم ، ولا سيما علمه المفضل التاريخ .

وفي سنة 1430 م يرحل المقرئزي وأسرته إلى مكة المكرمة ، كي يؤدي فريضة الحج ، ومكة ليست بغربة عليه ، فقد جاور فيها إبان طلبه العلم ، بيد أنه ظل مقيمًا بها تلك المرة الثانية حتى سنة 1435 م (خمس سنوات) ، واشتغل بمكة في تلك الأثناء بتدريس علم الحديث ، وبالتأليف في علم التاريخ .

ويعود المقرئزي إلى القاهرة ، ليمضي بقية حياته بحارة برجوان ، التي ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويظهر لنا أنه جعل من منزله مكانًا لاستقبال تلاميذه ومريديه ، وصومعة يؤلف فيها الكثير في مختلف علوم عصره .⁸

بدأ النشاط العلمي للمقرئزي بعمل ضخيم ألا وهو تاريخ القاهرة ، والذي نعرفه بـ (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، وهو كتاب عني فيه المقرئزي بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى وقتنا الحالي ، وكان تأليفه إياه بين عامي 1417 م و 1436 م (19 عامًا) .

على أنه يظهر أن رحلنا اعتمد ، إلى حد كبير ، في تأليف هذا الكتاب الزاخر ، والذي يعد بحق فخر مؤلفاته ، على كتاب صنفه قبله المؤرخ / الأوحدي ، فنقل منه دون أن يشير إليه ، أو يعترف بأخذه منه ، لذلك رماه السخاوي المؤرخ المشاكس بقوله : كتاب الخطط مفيد لكونه (أي المقرئزي) ظفر بمسودة الأوحدي فأخذها وزادها زوائد غير طائفة .⁹

كما يذكر السخاوي أن الأوحدي كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها ، فبيضه التقي المقرئزي ، ونسبها لنفسه مع زيادات .¹⁰

والمقرئزي نفسه اعترف بانتفاعه بتلك المسودات .¹¹ ولم يستطع علماء التاريخ من أهل الاستشراق والذين تخصصوا في مؤرخي القرن التاسع الهجري ، لم يستطع أحدهم أن يدلي برأي حاسم في هذه المسألة ، بل قال بصدها المؤرخ / كاترمين الفرنسي في كتابه الموسوعي (الممالك) : إنه من الفطنة والصواب أن نسكت عن هذه القضية ، وأن نحذر الحكم فيها برأي قاطع .¹²

على أنه مما يسترعي النظر أن المقريري نفسه لم يدفع هذه التهمة برأي قاطع ، ولم يستطع أن يدلي في سياق الرد عليه بأكثر من قوله : حسب العالم أن يعلم ما قيل ، ويقف عليه .¹³ وقد أقر المقريري باتصاله بالمؤرخ الأوحدي ، نضيف إلى ذلك أنه توجد بكتاب المواعظ والاعتبار شواهد داخلية تؤدي بالباحث إلى كثير من الشك على الأقل ، ومنها خلو بعض كتب المقريري المتأخرة من عبارات واردة بكتاب الخطط ، مثل إدلائه في نسب الأكراد برأي مهم ، وعدم تكراره لهذا الرأي على أهميته في كتابه (السلوك في معرفة دول الملوك) .

ومن الأمور الداعية للشك أيضًا : ما جاء بكتاب المواعظ والاعتبار بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد ما نصه : " وآخر من أدركنا في الشيخة / فاطمة بنت عباس البغدادية¹⁴ ، توفيت في ذي الحجة سنة 714 هـ " ، وقد ورد اسم هذه السيدة الفاضلة / فاطمة بنت عياش ، في الجزء الثالث من كتاب (الدرر الكامنة) ، لابن حجر العسقلاني ، وهذا التاريخ إن صح المتن وصحت سنة الوفاة يقع قبل مولد المقريري والأوحدي كذلك بأكثر من خمسين سنة !! .

وقد نقلت لك هذه العبارة من الطبعة الكاملة المعدودة أحسن الطبعين المعروفتين لكتاب (المواعظ والاعتبار) ، على كل حال فالأمر في حاجة إلى تدقيق وتمحيص بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض .

ومهما يكن من شيء فالمقريري صدر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة ، وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيلة بوصف دقيق ، مبتدئًا بمدينة الإسكندرية ، وعني عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة ، فجاء الجزء الثاني من الكتاب ، وهو نصف الكتاب ، ثبتًا مليًا بأحوال القاهرة وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة في العصور الوسطى ، فشرح ما تحتويه القاهرة من الخطط وما يقع بها من الآثار ، فوصف الحارات والدروب والدور والحمامات والقيساريات ، والأسواق والأحكار والمناظر والقناطر والبرك والميادين

و القلعة و ما بها من منشآت ، والجوامع والمساجد ، والمعابد ، والمقابر ، وأرباب المذاهب الدينية المختلفة .

وحرص المقرئ على أن يسند في وصفه إلى ما يرتبط به كل أثر من أساس تاريخي ، فاحتوى كل فصل على ما يلائمه ويشاكله من الأخبار ، فصار بهذا الاعتبار قد جمع ما قد تفرق و تبدد من أخبار مصر ، ولم يتردد المقرئ في تكرار الخبر إذا احتاج إليه ، بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب .

وأول طبعة لهذا الكتاب ترجع إلى سنة 1270 هـ (مجلدان) عن مطبعة بولاق القاهرية ، ويجدر بالذكر أن الباحثة الفرنسي / جاستون فييت (1887 م . 1971 م) قام بنشر الكتاب نشرًا علميًا ، فأعاد طبع أجزاء منه في القاهرة عن مطبعة المعهد الفرنسي للآثار (1911 م . 1923 م) ، كما أعيد نشره بالقاهرة في أربعة أجزاء 1324 هـ و 1425 هـ .

وأذكر أنني قرأت لأستاذنا الدكتور / مصطفى زيادة أن المسيو / جاستون فييت قد وهب ثلثي عمره في إخراج خطط المقرئ ، وهذا الرجل يستحق منا مقالة مسهبة نأمل في إنجازها أو في من ينجزها .

ثم أتبع المقرئ كتابه الخطط بتأليف في تاريخ مدينة الفسطاط ، سماه : (عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط) ، وهو في الواقع تاريخ لمصر الإسلامية في عهد الولاة .

وأتمى المقرئ ذلك بكتاب في دولة الفاطميين بمصر ، واسمه : (اتعاظ الحنفا لأخبار الخلفاء) ، ونشره أستاذنا الدكتور / جمال الدين الشيال بالقاهرة في طبعة مزيدة عن طبعته الأوربية القديمة .¹⁵

حتى إذا فرغ المقرئ من كتابه عن الفاطميين فكر في تأليف كتاب يكون تاريخًا للأيوبيين والمماليك ، ليتم به سلسلة مؤلفاته في التاريخ المصري الوسيط ، من الفتح العربي إلى زمنه ، فكان كتاب (السلوك لمعرفة دولة الملوك) ، وهو الكتاب الذي عدا أساسًا رئيسيًا لكل التواريخ المصرية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية الأولى والثانية ، وهذا الكتاب . كما

أولهما : كتاب (المقفى الكبير) ، وكان المقصود به أن يكون معجمًا لتراجم حكام مصر ورجالها منذ أقدم العصور إلى ما قبل عصره ، وقدر له أن يكون في ثمانين مجلد ، ولم يستطع أن ينجز ، ها سوى ستة عشر فقط لا غير .¹⁶ أما ثانيهما : كتاب (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) ، فكان الغرض منه أن يكون معجمًا لتراجم معاصريه ، غير أن المقرئ تركه كذلك دون أن يفرغ من مراجعته .¹⁷

وصرف المقرئ كثيرًا من نشاطه الجهد في التاريخ الإسلامي العام ، فألف في السيرة النبوية ، وفي قبائل العرب التي نزلت مصر منذ الفتح الإسلامي لها ، وفي جغرافية حضرموت بجنوب شبه جزيرة العرب ، وفي الدويلات الإسلامية بالحبيشة .

كما أسهم بنصيب وافر في التاريخ الاقتصادي ، والتاريخ الاجتماعي ، حين ألف في الموازين والمكايل والمقاييس والنقود ، وفي تاريخ المجاعات والطواعين ، وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب (النزاع والخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) ، وكتاب (إغاثة الأمة لكشف العمة) ، إذ رجع المقرئ ، في الكتاب الأول من هذين الكتابين ، أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الأمويين والهاشميين إلى عصبية الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث المبررة والحروب المستمرة والشخصيات المتنافرة ، التي لم تعد كلها أن تكون أسبابًا طارئة في احتدام الخلاف ، مترسمًا في ذلك سبيل العلامة / عبد الرحمن بن خلدون وفلسفته في المقدمة .¹⁸

أما الكتاب الثاني من هذين الكتابين وهو : (كشف الغمة) فتناول فيه المقرئ تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة 1405 م (26 مجاعة تقريبًا) ، وهي السنة التي ألف فيها ذلك الكتاب ، وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وغلاء ، يرجع إلى : سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد .¹⁹

وما سبق يعد تخريجًا اقتصاديًا سليمًا ، سبق به مؤرخنا / المقرئ عصره ، إلا أن الباحث لا يستطيع أن ينكر تأثير المقرئ بما كتبه العلامة / ابن خلدون

في مقدمته الشهيرة ، وبالذات في فصل الجباية وسبب قلتها وكثرتها ، وما يليه من
الفصول المتفرعة على هذا المعنى .²⁰

بل إن تأثير ابن خلدون على المقرئ في تأليف هذا الكتاب بالذات
تعدى إلى طريقة العرض والأسلوب وفواتح الأبواب وخواتيمها ، فضلاً عن الفكرة
العامة .²¹

ونؤكد هنا على أن ثمة صلة وصداقة عظيمة بين المقرئ وابن خلدون ،
حيث أشار المقرئ إلى ابن خلدون إشارة التلميذ لأستاذه ، ولم يتحرج أن
يستشهد بعبارة لاذعة له في وصف المصريين ، ونصها حسب ما ورد في الجزء
الأول من كتاب : المواعظ والاعتبار ، قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن
بن خلدون (رحمه الله تعالى) : أهل مصر كأنما فرغوا من يوم الحساب .

والحقيقة أن المقرئ تأثر بابن خلدون ومقدمته في هذين الكتابين
وغيرهما من مؤلفاته تأثراً فاق حد الإعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها :
لم يعمل مثالها ، وإنه لعزیز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ،
ونتيجة العقول السليمة والفهم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة
الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ...

وما سبق يعد وصفاً دالاً في وضوح على دراسة المقرئ لمقدمة ابن
خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره
لقيمته العلمية بالقياس إلى غيرها مما عرفه خلال قراءاته الدائبة التي يبدو أنها لم
تنقطع إلا بوفاته سنة 1442 م .

إن المقرئ كما تدل كل الشواهد كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع
، كثير الأدب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به ما خلفه من
مؤلفات لم ير الضوء بعضها حتى الآن ، وإن نظرة واحدة إلى قائمة مؤلفاته
لكفيلة بإيقاف أي باحث على إلمامه بالخطط والتاريخ والترجمة والأوزان والمقاييس
، كما ذكرنا لك من قبل ، وهذا فضلاً عن معرفته بعلم الحشرات²² والمعادن
والطب والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث .

أقول لكم : إن أعظم اهتمام المقريري كان موجهاً نحو التاريخ ، لأنه كان محباً له ، معنياً بتحقيقه والتأليف فيه ، فعرف منه جزءاً كبيراً معرفة تامة ، وحفظ منه كثيراً عن ظهر قلب ، وأقر بذلك كله تلميذه الذي عرف معاصريه من المؤرخين ، وخليفته الذي اقتفى أثره ومنهجه في كتابة التاريخ ، وهو أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، حين قال في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة) : وفي الحملة هو أعظم من رأيناه في علم التاريخ وضرره ، مع معرفتي بمن عاصره من علماء المؤرخين ، والفرق بينهم ظاهر ، وليس في التعصب فائدة

23 .

أما عن أخلاق المقريري الشخصية ، فالمعاصرون له أجمعوا على أنه عاش رجلاً فاضلاً ديناً ، مجداً أميناً في عمله ، حتى إن السخاوي (مؤرخنا المشاكس) مع شدته في نقد كتاب (المواعظ والاعتبار) ، يقول : إن المقريري كان على جانب عظيم من حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة في المذاكرة ، والمداومة على التهجد والأوراد ، وحسن الصلاة ، ومزید الطمأنينة ، والملازمة لبيته ، وإنه حمّد سيرته في مباشرته²⁴ ، أي في الوظائف التي تولّاها قبل أن ينصرف إلى حياة الدرس والتأليف . وختاماً نحب أن نشير هنا إلى أن من المؤرخين الذين عاصروا المقريري أو بمعنى آخر الذين كانوا من أخلص الخلاء لمنهجه التاريخي : ابن حجر العسقلاني ، والعيني ، وابن عرب شاه ، و خليل بن شاهين ، وبهاء الدين الخالي ، وقد عرفنا بهم خلال كتابنا (مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات) ، أملين . إن كان في العمر بقية . أن نخصهم بتحليلات مستقلة ، لكي يتعرف عليهم القارئ المفضل .

الهامش:

¹ - محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، 1954 م ، ص 3 وما بعدها

- ² - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مطبعة بولاق المصرية ، القاهرة ، 1 / 3
- ³ - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المرجع السابق ، 7 / 1
- ⁴ - يسري عبد الغني عبد الله ، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1991 م ، ص 171 وما بعدها ، ولنفس المؤلف ، مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2000 م ، ص 75 وما بعدها
- ⁵ - المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مطبعة بولاق المصرية ، القاهرة ، 1270 هـ ، 2 / 95 . 96
- ⁶ - المقرئزي ، المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار ، المرجع السابق ، 2 / 92 ، 105
- ⁷ - المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المرجع السابق ، ص 225
- ⁸ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشرة popper ، كاليفورنيا ، 1909 م - 1935 م ، 7 / 218
- ⁹ - السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك ، القاهرة ، 1 / 22
- ¹⁰ - السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، طبعة القاهرة ، 1 / 358 - 359
- ¹¹ - السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، المرجع السابق ، 1 / 359
- ¹² - Quatremere , Mamlouks , Paris , 1.P.x111
- ¹³ - المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مرجع سبق ذكره ، 1 / 12 و 2 / 256

- 14 - المقريري ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مرجع سابق ، 2 / 248 ، وكذلك : ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، القاهرة ، 3 / 226 .
- 15 - المقريري ، اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ، تحقيق / جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1949 م ، راجع مقدمة التحقيق
- 16 - قام الأستاذ / محمد البعلاوي ، بتحقيق هذا الجزء من كتاب : المقفى الكبير للمقريري ، وصدر عن دار الغرب الإسلامي ، 1411 هـ = 1991 م ، ولكنه لم يشر على غلاف الكتاب إلى أن هذا الكتاب لم يكمله المقريري ، وأن الموجود حوالي ستة عشر مجلدًا فقط ، وهذا يجعل القارئ معتقدًا أن الكتاب الذي أمامه كاملاً
- 17 - قام الأستاذان / عدنان درويش و محمد المصري بتحقيق هذا الجزء من كتاب : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة للمقريري ، و صدر عن وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية ، في جزئين ، وقد قاما المحققان بالتوضيح على غلاف الكتاب بأنه قطعة منه وليس كله ، فلهما الشكر والتقدير
- 18 - ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة دار الشعب المصرية ، القاهرة ، ص 107 وما بعدها
- 19 - المقريري ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشرة محمد مصطفى زيادة و جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ص 4
- 20 - ابن خلدون ، المقدمة ، مرجع سابق ، ص 233 وما بعدها
- 21 - المقريري ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، مرجع سابق ، ص د ، وأيضاً السخاوي ، الضوء اللامع ، مرجع سابق ، 4 / 144
- 22 - المقريري ، نحل عبر النحل ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1946 م ، مقدمة التحقيق
- 23 - أبو المحاسن بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مرجع سابق ، 7 / 279

²⁴ - السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مرجع سابق ، ص 22 ،
23 ، 24